(٥٥) من تراث الكوثري

بيان زغل العلم و الطلب

للحافظ الكبير مؤرخ الإسلام

شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي

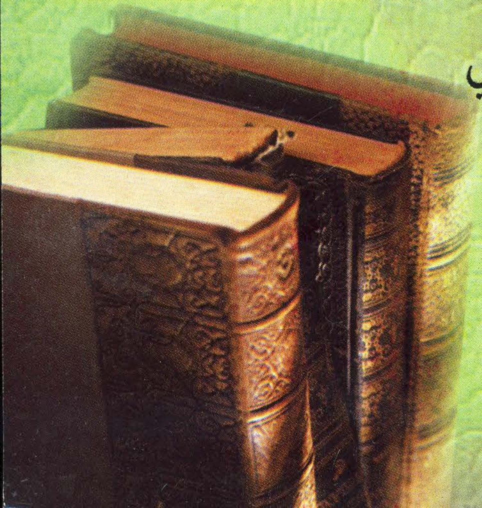
المتوفى سنة ٧٤٨هـ

ويليـــه:

النصيحة الذهبية لابن تيمية

عن نسخة الأستاذ الشيخ

محمد زاهد الكوثري



الناشر

المكتبة الأزهرية للتراث

٩ درب الأتراك - خلف الجامع الأزهر

☎ ٥١٢٠٨٤٧

(٥٥) من تراث الكوثري

بيان
زغل العلم والطلب

للحافظ الكبير مؤرخ الإسلام

شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي

المتوفى سنة ٧٤٨هـ

ويليـــه:

النصيحة الذهبية لابن تيمية

عن نسخة الأستاذ الشيخ العلامة

محمد زاهد الكوثري

الناشر

المكتبة الأزهرية للتراث

٩ درب الأتراك ـــ خلف الجامع الأزهر

ت: ٢٥١٢٠٨٤٧

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله العليم، والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الكريم، وعلى آله وأصحابه الذين انتهجوا الطريق القويم، أما بعد:

فلا يخفى أن العلوم تزداد نضجاً بتلاحق أفكار الباحثين وتتنوع بتعاقب بحوث الفاحصين، وعلى مقدار حظوظ الأمم منها تكون سعادتها وشقاؤها، وعليها ترتكز حياتها وبقاؤها.

وكان المسلمون أيام مجدهم لا يلحقهم فيها لاحق، ولا يسبق إلى مرتمى شأوهم فيها سابق.

وعلى قدر عناية المرء بها تكون صلته بماهيته النوعية، ومن كان خلواً منها فهو هيكل في الصورة البشرية، وتمثال مدسوس بين أفراد النوع، لا قيمة له لا في نظر العقل ولا في تقدير الشرع.

فالعلم والدين شقيقان لا يتدافعان إلا في مخيلة من لا يحق أن يعد من بني الإنسان.

يعز علينا أن نرى من يناهض العلم بين من يتظاهر بالدين وهو بعيد عنه جامد جاهل، كما نستسخف أحلام من يناصبه العداء في الكمين وهو دعي في العلم خامد خامل. كلاهما آفة كل فضيلة، ومنهما تنسل كل رذيلة.

هذا. و(زغل العلم) جزء لطيف للذهبي يبين فيه آراءه في العلوم والمذاهب وما قد يعتريها من آفات تكدر صفو تلك المطالب، بأسلوب سلس يحلو في الأسماع ولهجة مستطرفة الأسجاع، يستدل به القارئ الكريم على مبلغ صلة الذهبي بالعلوم التي تكلم عليها، ويتمثل لديه حياته العلمية كأنه عاش معه وعاشره، ويظهر له هل

هو ممن ينزل على حكمه في تراجم الرجال؟ في مختلف الطبقات والأجيال على تفاوت علومهم من منقول ومعقول وفروع وأصول، وإليه يفزع عامة المتأخرين في تراجم العلماء المتقدمين حيث أقروا له بالبراعة في معرفة ذلك، لكن لابد للتعويل على معيار المؤرخ في وزنه لرجال العلوم وأئمتها أن نكون على بينة من مبلغ مشاركته بعلوم المترجَمِين ومعارفهم؛ حتى لا يضع ميزانُه الرفيعَ دون مستواه في المرتبة ولا يرفع الوضيع فوق ما له من الميزة والمزية.

والذهبي وإن كان من أبرع من ينتمي إلى السلف من المتأخرين، ومشاركته قوية في علوم القراءات، وباعه غير قصير في الحديث ومعرفة أسماء الرجال ووفياتهم لكنه بعيد عن الالتفات إلى بقية العلوم حتى الفقه وأصوله؛ فيلزم أن يكون الاعتماد على معياره متوازناً مع ما له من الحظ في علم من يؤرخه ويترجم له، مع التنبه لما قد يتغلب عليه من أهواء ولدتها آراء شب عليها ودرج . ولا نعدو القصد في التعليق على هذه الرسالة، ولكلٍّ رأيه فيما عليه وما له.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، وسلام على عباده الذين اصطفى.

اعلم أن في كل طائفة من علماء الأمة ما يذم ويعاب فتجنبه:

(علم القراءة والتجويد)

فالقراء المجوِّدة: فيهم تنطع وتحرير زائد يؤدي إلى أن المجود القارئ يبقى مصروف الهمة إلى مراعاة الحروف، والتنطع في تجويدها بحيث يشغله ذلك عن تدبر معاني كتاب الله تعالى، ويصرفه عن الخشوع في التلاوة، ويخليه قوي النفس مزدرياً بحفاظ كتاب الله تعالى، فينظر إليهم بعين المقت، وبأن المسلمين يلحنون وبأن القراء لا يحفظون إلا شواذ القراءة.

فليت شعري أنت ماذا عرفت؟! وماذا علمت؟! فأما علمك فغير صالح، وأما تلاوتك فثقيلة عرية عن الخَشْعة والحزن والخوف، فالله تعالى يوفقك ويبصرك رشدك ويوقظك من مرقدة الجهل والرياء.

وضدهم قراء النغم والتمطيط، وهؤلاء من قرأ منهم بقلب وخوف قد ينتفع به في الجملة، فقد رأيت منهم من يقرأ صحيحاً ويطرب ويبكي، ورأيت منهم من إذا قرأ قسى القلوب وأبرم النفوس وبدل الكلام، وأسوأهم حالاً الجنائزية.

وأما القراءة بالروايات وبالجمع فأبعد شيء عن الخشوع، وأقدم شيء على التلاوة بما يخرج من القصد، وشعارهم في تكثير وجوه حمزة، وتغليظ تلك اللامات وترقيق الراءات.

اقرأ يا رجل واعفنا من التغليظ والترقيق وفرط الإمالة والمدود ووقوف حمزة فإلى كم هذا؟!

وآخر منهم إن حضر في ختم أو تلا في محراب جعل دَيْدَنَه إحضار غرائب الوجوه والسكت والتَّهَوُّع بالتسهيل، وأتى بكل خلاف ونادي على نفسه: أنا "أبو اعرفوني"، فإني عارف بالسبع؛ آيش نعمل بك؟ لا، وصبحك الله بخير إنك حجر مِنْجَنِيقَ ورصاصٌ على الأفئدة(١).

---

(١) علوم القراءات من أشرف العلوم لتعلقها بالقرآن الحكيم الذي به يسعد المسلمون إذا اعتصموا بهدايته في شئون الدارين، ويلقون الهوان والشقاء إن نبذوه وراءهم ظهرياً. والتجويد حتم لازم. والقراءات أبعاض القرآن يجب إدامة تواترها على الأمة مدى القرون بل على أهل كل قطر: أن يكون عدد القائمين بها منهم بالغاً حد التواتر، وإلا يأثمون جميعاً كما نص على ذلك المحققون من العلماء. والمصنف ممن صرف شطراً من عمره في علم القراءة حتى حصل له مشاركة قوية فيه، فهو من أكبر المقدرين لعظم شأن علوم القراءات. وإنما أراد هنا تنبيه المغترين على الآفات التي لا يخلو منها علم وردعهم عنها. وحاشاه أن يكون قصده تثبيط عزائم القائمين بهذا العلم الجليل في أمصار المسلمين على قلتهم اليوم وقبل اليوم كثرهم الله وأدامهم.

(علم الحديث)

وأما المحدثون: فغالبهم لا يفهمون ولا همة لهم في معرفة الحديث ولا في التدين به، بل الصحيح والموضوع عندهم بنسبةٍ، وإنما همتهم في السماع على جهلة الشيوخ، وتكثير العدد من الأجزاء والرواية، لا يتأدبون بآداب الحديث، ولا يستفيقون من سكرة السماع، الآن يسمع الجزء ونفسه تحدثه متى يرويه أبعد خمسين سنة؟! ويحك ما أطول أملك وما أسوا عملك، معذور سفيان الثوري يقول فيما رواه أحمد بن يوسف التغلبي: حدثنا خالد بن خداش حدثنا حماد بن زيد قال سفيان الثوري: لو كان الحديث خيراً لذهب كما ذهب الخير. صدق والله، وأي خير في حديث مخلوط صحيحه بواهِيه وأنت لا تفليه ولا تبحث عن ناقليه[1]، ولا تدين الله تعالى به.

أما اليوم في زماننا فما يفيد المحدثَ الطلبُ والسماعُ مقصودَ الحديث من التدين به، بل فائدة السماع ليروي، فهذا والله لغير الله تعالى.

---

(1) مجرد الرواية قليل الجدوى في الأعصار المتأخرة. بل قالوا: الحديث شطران أحدهما معرفة أحوال رواته على الوجه، والآخر معرفة معانيه على ما هي عليه عند أهل الفقه بالدين، فمن كان مقصراً في أحدهما فقد قصر في الحديث بقدر ذلك ولو أدى ما سمعه كما سمعه. وقل من يفي الشرط في جميع الطبقات، والجمع بين الشطرين صعب المنال إلا لأفذاذ من الرجال، وقد نقل ابن طولون في كتابه "الفلك المشحون" عن الإمام الشافعي رضي الله عنه أنه قال لبعض أصحابه: "أتريد أن تجمع بين الفقه والحديث هيهات". بل كثيراً ما تراه نفسه يروي في "الأم" حديثاً ثم يقول: وبه آخذ إذا صح أو إن ثبت ونحو ذلك، ولا يجزم بشيء من طرفي النفي والإثبات، وهذا غاية التأني والورع في دين الله فلا تغترن بمن تسبق فتواهم الاستفتاء وإن لم يقاربوا نعال أولئك الأئمة الفقهاء.

خطابي معك يا محدث لا مع من يسمع ولا يعقل ولا يحافظ على الصلوات ولا يجتنب الفواحش ولا قرش الحشائش، ولا يحسن أن يتصدق، فيا هذا لا تكن مجرماً فاتناً أنحس المناحيس.

فطالب الحديث اليوم ينبغي له أن ينسخ أولاً: (الجمع بين الصحيحين)، و(أحكام عبد الحق)، و(الضياء)[1]، ويدمن النظر فيهم، ويكثر من تحصيل تآليف البيهقي؛ فإنها نافعة ولا أقل من مختصر كالإلمام ودرسه[1].

---

(1) أما (الجمع بين الصحيحين) فهو للحميدي الأندلسي (المتوفى سنة ٤٨٨) جمع فيه أحاديث الصحيحين وأجاد، رتبها على مسانيد الصحابة على خمس طبقات، فابتدأ بمسند أبي بكر إلى تمام العشرة المبشرة، ثم المقدمين بعد العشرة ثم المكثرين، ثم المقلين، ثم النساء. حذف الأسانيد إلا التابع عن الصاحب، وعين مواطن اتفاق الشيخين ومواقع انفرادهما في المتون دون الرواة، وأضاف إلى ذلك نبذاً مما تنبه عليه من كتب الدارقطني لا سيما (الاستدراكات والتتبع) و(مستخرج الإسماعيلي على البخاري). و(مستخرج أبي بكر الخوارزمي البرقاني على الصحيحين)، و(أطراف الصحيحين لأبي مسعود الدمشقي)، وكتب غيرهم من الحفاظ الذين عنوا بما يتعلق بالكتابين من تنبيه على غرض أو تتميم لمحذوف أو زيادة في شرح أو بيان لاسم أو نسب أو كلام على إسناد أو تتبع لوهم بعض أصحاب التعاليق في الحكاية عنهما ونحو ذلك، وميز عن الأصل ما زاده من الكتب المذكورة. والحميدي هذا ممن سمع على ابن عبد البر ولزم ابن حزم، ولما امتحن مع شيخه في المذهب الظاهري هرب إلى الشرق وأصبح لا يتظاهر بمذهبه حتى مات ببغداد، ولو كان رتب كتابه على الأبواب لكان أكثر نفعاً وأسهل تناولاً للمشتغلين بأحاديث الأحكام. وأما كتاب (الأحكام) فهو للحافظ عبد الحق الإشبيلي (المتوفى سنة ٥٨١)، فالأحكام الكبرى له كتاب لطيف الوضع كثير النفع مرتب على الأبواب انتقى أحاديثه من الموطأ والكتب الخمسة وابن أبي شيبة وغير ذلك، غالبها أحاديث الأحكام وفيها الترغيب والترهيب والأدعية والأذكار وجمل في الفتن ونبذ من التفسير، يتكلم على الأحاديث مرة وعلى الرواة أخرى من كامل ابن عدي وعلل الدارقطني وسننه وعلل ابن أبي حاتم، ومع ذلك لم يخل عن أوهام انتقدها أبو الحسن بن القطان الفاسي (المتوفى سنة ٦٢٨) في كتابه (الوهم والإيهام في كتاب الأحكام) أجاد فيه على تعنت معروف منه في نقد الرجال. وأما كتاب الضياء فهو كتاب (الأحاديث المختارة) للضياء المقدسي (المتوفى سنة ٦٤٣) استخرجها مما ليس في

فأي شيء ينفع السماع على جهلة المشيخة الذين ينامون والصبيان يلعبون والشيبة يتحدثون ويمزحون، وكثير منهم ينعسون ويكابرون، والقارئ يصحف وإتقانه في تكثير: "أو كما قال"، والرضع يتصاعقون[٢] بالله خلونا فقد بقينا ضحكة لأولي العقول ينظرون إلينا ويقولون: هؤلاء هم أهل الحديث؟ نعم ماذا يضر!.

= الصحيحين موصولاً وربما يذكر أحاديث بأسانيد جياد لها علة تذكر يفند علتها. وتصحيح الضياء يعد قريباً من تصحيح الترمذي، ويحسن أن يخص ذلك بأحاديث الفقه من حلال وحرام فإنه لتشبهه بآراء أصحابه قد يتساهل في تصحيح مثل حديث حماد بن سلمة: (أخرج خنصره على إبهامه فساخ الجبل)، رتب كتابه على مسانيد الصحابة وأطال الأسانيد إليهم وابتدأ بأحاديث العشرة المبشرة ثم ذكر بقية الصحابة على حروف الهجاء باعتبار أسمائهم ولم يراع طبقات الحميدي وإن كان ألف كتابه مسترشداً بقوله: "ولو تفرغ بعضهم لتتبع الصحيح من غير الصحيحين لكان حسناً". وكتابه كتكملة لكتاب الحميدي ولو جمعه على الأبواب لكان أقرب نفعاً.

(1) كتب البيهقي ممتعة في الرواية لا سيما (معرفة السنن والآثار)، لم يجمع للشافعية مثلها في الانتصار للمذهب إلا أنها لا تخلو عن أوهام وعدول عن الجادة في التحزب؛ فيحتاج معها إلي (الجوهر النقي) ونحوه تقويماً لأودها، وقلما يجمع الله تعالي لرجل الإكثار وحسن النقد في الآثار. وأما "الإلمام في أحاديث الأحكام" لابن دقيق العيد فمختصر نافع لولا ما وقع فيه من عزو الحديث إلي غير من خرجه ونحو ذلك، ولقد أحسن القطب عبد الكريم الحلبي تلخيصه وإصلاحه في كتابه (الاهتمام بتلخيص الإلمام) فالناسخ لتلك الكتب يحتاج إلي درسها عند شيخ متقن جامع بين الرواية والدراية لئلا يأخذ بما أخذ عليهم فيغلط.

(2) وتلك الحشود في مجالس التسميع في عصر المصنف وقبله وبعده لم تكن إلا لتسجيل أسمائهم في طباق السماع -رضعاً وصبياناً شباباً وكهولاً رجالاً ونساء- بأنهم حضروا أو سمعوا الكتاب الفلاني فيروي من عاش من هؤلاء ذلك الكتاب بعد مضي دهر عن هذا الشيخ المسمع استناداً على تسجيل اسمه في تلك الطباق غير ضابط للفظ الشيخ ولا ذاكر لقراءة القارئ -ولا تَسَلْ عن التساهل في الإجازات- وهكذا. ويكون الرجال في الأسانيد العالية هرمين مخلطين عند التسميع ورضعاً أو صبياناً حين التحمل والسماع في الغالب وبهذه الطريقة تعلو أسانيدهم. قال المصنف في الميزان: ولو فتحت على نفسي تليين هذا الباب (يعني من كان بعد سنة ثلاثمائة) لما سلم معي إلا القليل إذ الأكثرون لا يدرون ما يروون، ولا يعرفون هذا الشأن

ولو لم يبق إلا تكرار الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم لكان خيراً من تلك الأقاويل التي تضاد الدين، وتطرد الإيمان واليقين، وتردي في أسفل السافلين.

لكنك معذور فما شممت للإسلام رائحة، ولا رأيت أهل الحديث، فأوائلهم كان لهم شيخ عالي الإسناد بينه وبين الله تعالى واحد معصوم عن معصوم سيد البشر عن جبريل عن الله عز وجل، فطلبه مثل أبي بكر وعمر وابن مسعود وأبي هريرة الحافظ وابن عباس وسادة الناس الذين طالت أعمارهم وعلا سندهم وانتصبوا للرواية الرفيعة، فحمل عنهم مثل مسروق وابن المسيب والحسن البصري والشعبي وعروة، وأشباههم من أصحاب الحديث وأرباب الرواية والدراية والصدق والعبادة والإتقان والزهادة، الذين من طلبتهم مثل الزهري وقتادة والأعمش وابن جحادة وأيوب وابن عون، وأولئك السادة الذين أخذ عنهم الأوزاعي والثوري ومعمر والحمَّادان وزيادة ومالك والليث، وخلق سواهم من أشياخ ابن المبارك ويحيى بن القطان وابن مهدي ويحيى بن آدم والشافعي والقعنبي، وعدة من أعلام الحديث الذين خلفهم مثل أحمد بن حنبل وإسحق وابن المديني ويحيى بن معين وأبي خيثمة وابن نمير وأبي قريب وبندار، ومن يليهم من مشيخة البخاري ومسلم وأبي داود والنسائي وأبي زرعة وأبي حاتم ومحمد بن نصر وصالح جزرة وابن خزيمة وخلائق في الزمن الواحد منهم الألوف من الحفاظ ونقلة العلم الشريف.

ثم تناقص هذا الشأن في المائة الرابعة بالنسبة إلى المائة الثالثة، ولم يزل ينقص إلى اليوم، فأفضل من في وقتنا اليوم من المحدثين على قلتهم نظيرَ صغارِ من كان في ذلك الزمان على كثرتهم.

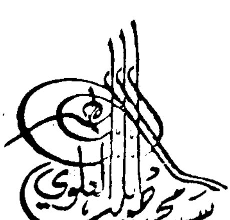
=

إنما سمعوا في الصغر، واحتيج إلى علو سندهم في الكبر. اهـ. وفي كتابنا (عتب المغترين بدجاجلة المعمرين) ترى عجائب وغرائب.

وكم من رجل مشهور بالفقه وبالرأي في الزمن القديم أفضل في الحديث من المتأخرين، وكم من رجل من متكلمي القدماء أعرف بالأثر من مشيخة زماننا.

فما أدركنا من أصحاب الحديث إلا طائفة كقاضي ديار مصر وعالمها تقي الدين بن دقيق العيد، والحافظ الحجة شرف الدين الدمياطي، والحافظ جمال الدين ابن الظاهري، والشيخ شهاب الدين أحمد بن فرح (الإشبيلي)، ونحوهم. وأدركنا من عكر الطلبة شهاب الدين بن الدقوقي، ونجم الدين بن الخباز، والشيخ عبد الحافظ.

ونحمد الله تعالى في الوقت أناس يفهمون هذا الشأن، ويعتنون بالأثر كالمزي وابن تيمية والبرزالي، وابن سيد الناس، وقطب الدين الحلبي، وتقي الدين السبكي والقاضي شمس الدين الحنبلي، وابن قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة، وصلاح الدين بن العلائي، وفخر الدين بن الفخر، وأمين الدين بن الواني، وابن إمام (أم الملك) الصالح، ومحب الدين المقدسي، وسيدي عبد الله بن خليل، وجماعة سواهم فيهم العكر والغثاء. الله يستر والمرء مع من أحب والسعيد من نهض وهب وعلى الطاعة أكب والله الموفق الهادي.



(المالكية)

الفقهاء المالكية علي خير واتباع وفضل إن سلم قضاتهم ومفتوهم من التسرع إلى الدماء والتكفير، فإن الحاكم والمفتي يتعين عليه أن يراقب الله تعالى، ويتأني في الحكم بالتقليد، ولا سيما في إراقة الدماء، فالله تعالى ما أوجب عليهم تقليد إمامهم، فلهم أن يأخذوا ويتركوا كما قال الإمام مالك رحمه الله تعالي: كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا صاحب هذا القبر صلي الله عليه وسلم.

فيا هذا إذا وقفت غداً بين يدي الله تعالى فسألك لم أبحت دم فلان فما حجتك؟ إن قلت: قلدت إمامي. يقول لك: فما أنا أوجبت عليك تقليد إمامك، ثبت أن النبي صلي الله عليه وسلم قال: « **أول ما يقضى بين الناس في الدماء** »، وفي الحديث: « **لا يزال المرء في فسحة من دينه ما لم يَتَنَدَّ بدمٍ حرام** ». نعم، من رأيته زنديقاً عدواً لله تعالى فاتق الله فيه وأرق دمه ابتغاء وجه الله تعالى بعد أن تستفتي قلبك وتستخير الله فيه[1].

---

(1) الزنديق المتظاهر بالإسلام المستمر علي دس سمومه بين المسلمين لا يمكن إزالة شره وفساده غالبا إذا قبلت توبته -باعتبار حكم الدنيا- كلما أبدى زندقة لأنه لا يتحاشى أن يتلون بكل لون وأن يظهر بكل مظهر ولا يستقر على مبدأ ثابت، ومن ثمة قال مالك: لا تعرف توبة الزنديق فيقتل وإن أبدى التوبة، ولا تقبل توبته. اهـ. أخذاً بظاهر قوله تعالى: (إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفراً لم يكن الله ليغفر لهم) وبظاهر الحديث فيمن بدل دينه، وبما يروى عن أبي موسى وإن كان مخالفاً لما عليه عمر ومن وافقه من الصحابة رضي الله عنهم. وجرى المسلمون على الأخذ بقول مالك إذا استفحل أمر الزنادقة الفوضويين ولم يمكن دفع شرورهم بقول بقية الأئمة كما فعلوا ببغداد أيام المستظهر بالله العباسي في حق القرامطة وبمصر بعد زوال الدولة العبيدية في حق أذناب الباطنية حيث أوجبت مصلحة المسلمين الأخذ بقول مالك، وقد خالفه من أئمة المغاربة بقي بن مخلد وابن المواز وتابعا بقية الأئمة، وقد ينكت بعضهم على السادة المالكية في هذه المسألة التي قد توجب مصلحة المسلمين الأخذ بها، وليس هذا التنكيت والتعريض بحقيق بأهل العلم وفي (انتصار الفقير

=

السالك لمذهب الإمام الكبير مالك): إني سمعت رجلاً وقع في كلام صعب في جانب النبوة فأردت رفعه لقاضي القضاة الشافعي (يعني ابن حجر) وأخبرته بالقصة فقال لي: رح به إلى المالكية واجعلها في رقبة مالك وحمله التعصب على مخالفة مذهبه لأنه كان حقه أن يسمع الدعوى ولا يعرض بالرجل للقتل بمذهب يعتقد خطأه وصحة مذهبه ليقبل التوبة، ومذهب مالك لا يقبلها فعرض بالرجل للقتل خطأ على معتقده وأساء الأدب على مالك. اهـ. وكان من في دينه رقة يتخوف جداً من قضاة المالكية أيام كان القضاء إليهم.

(الحنفية)

الفقهاء الحنفية أولو التدقيق والرأي والذكاء، والخيرُ من مثلهم إن سلموا من التحيل والحيل على الربا وإبطال الزكاة[1] ونقر الصلاة، والعمل بالمسائل التي يسمعون النصوص النبوية بخلافها[1].

---

(1) التحيل المفضي إلى إلغاء الحكم في تشريع الأحكام لا يصدر إلا ممن ضعف دينه ومرض يقينه، وأما تطلب المخلص من المآزق من غير إبطال حق ولا إحقاق باطل بتدابير لطيفة لا تصطدم مع النصوص، فمما ندب الله ورسوله إليه، وجرى سلف الأئمة وخلفهم عليه، وتبيين وجوه ذلك يدل على براعة وقوة ذكاء بشرط ألا يؤدي إلى ما أسلفناه، وأجرأ المتفقهين على التوسع في التحيل أدومهم صلة بالقضاء، ومن وجوه التحيل الذميم الإفتاء بأقوال شاذة لا تدعمها الحجج وبروايات ضعيفة لا تقوى أمام النقد مهما بهرجها المموه وزخرفها، ومن يقع منه هذا بقلة ورع فالله حسيبه، أما ما يعزى لأبي يوسف من أنه اتصل بالرشيد بحيل شرعية أجابه بها فولاه القضاء فكذب مختلق عليه -كتخصيص مالكٍ الرشيدَ برخص- لأنه ولي القضاء قبل الرشيد في عهد الهادي واستمر عليه في زمن الرشيد كما ذكره السمعاني وغيره ولم يكن من خلاله المحاباة كما يظهر من (كتاب الخراج) له، ومن سيرته المعروفة، وقد ألف الذهبي في ترجمته جزءاً خاصاً يثني فيه على علمه وزهده وورعه ويطريه مع أن الذهبي ممن عرف بالاقتصاد في تراجم هؤلاء. وأما ما ذكره العباس بن مصعب في تاريخ المروزيين عند ذكر عقيل بن عنبسة: حدثنا يوسف بن عيسى عن عقيل ابن عنبسة قال: قلت لمحمد بن الحسن: إن لي مالاً ولم تجب علي الزكاة منذ سنين. قال كيف هذا؟ قال قلت إذا كان عندي المال أقل من سنة فقبل أن يحول الحول أهب لولدي قال إنك لفقيه. اهـ. فمردود لأن ابن عنبسة مجهول لا يعرف بالفقه عند الأصحاب ولا بالرواية وليس في كتب محمد شيء من هذا القبيل وهو الذي يقول في بيع العينة: هذا كأمثال الجبال عندي ذميم. وحملوا تجويز أبي يوسف هذا البيع على صورة عدم عود العين إلى صاحبه، فأصبحا على اتفاق في المسألة، وقال الذهبي في جزء ألفه في ترجمة محمد بن الحسن بطريق الطحاوي عن أحمد بن أبي عمران عن محمد بن سماعة أنه قال: سمعت محمد بن الحسن يقول: هذا الكتاب (يعني كتاب الحيل) ليس من كتبنا إنما ألقي فيها. اهـ. يريد أن كتاباً في الحيل كان يتداوله من قل ورعهم من الناس في ذلك العهد ولم يكن اسم المؤلف مذكوراً في الكتاب، فظنوا أنه من كتب أصحاب أبي حنيفة وليس كذلك.

فيا رجل دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، واحتط لدينك، ولا يكن همك الحكـم بمذهبك، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه.

فإذا عملت بمذهبك في الطهارة والمياه والوتر والأضحية فأنـت أنـت، وإن كانت همتك في طلب الفقه الجدال والمراء والانتصار لمذهبك علـى كـل حـال، وتحصيل المدارس والعلو، فما ذا فقهاً أخروياً بل ذا فقه دنيوي، فما أظنـك تقـول غداً بين يدي الله تعالى تعلمت العلم لوجهك وعلمته فيك فاحذر أن تغلط وتقولهـا، فيقال لك كذبت إنما تعلمت ليقال عالم وقد قيل، ثم يؤمر بك مسحوباً إلى النار كما رواه مسلم في الصحيح.

فلا تعتقد أن مذهبك أفضل المذاهب وأحبها إلى الله تعالى، فإنك لا دليل لـك على ذلك ولا لمخالفك أيضاً، بل الأئمة رضي الله عنهم كلهم على خير كثير، ولهم في صوابهم أجران على كل مسألة، وفي خطئهم أجر على كل مسألة.

=

(1) كأنه يشير إلى ما انتقد ابن أبي شيبة على أبي حنيفة من المسائل المعدودة التي غالب ما ورد فيها من قسم مختلف الحديث فيترجح عند هذا ما لا يترجح عند ذاك لاختلاف أصول الأئمة في ذلك. وفي تمحيص تلك المسائل كتب خاصة يرجع إليها، ودقة مدارك الفقهاء قد تخفى على الرواة فيتسرعون في الحكم، فيحتاج هذا الموضوع إلى الإتقان في علم الخلاف والجدل وأصول الفقه مع التوسع في أحاديث الأحكام وعللها وآيات الأحكام وتفسيرها، واختلاف الأئمـة فـي شروط قبول الأخبار ووجوه الترجيح ونحوها، والراجل في جملة ذلك لا يحـق لـه أن يعـدو طوره، قال النجم الطوفي الحنبلي في شرح مختصر الروضة: إن أبا حنيفة قطعـاً لـم يخـالف السنة عناداً، إنما خالف فيما خالف منها اجتهاداً، بحجج واضحة، ودلائل صالحة لائحة وحججه بين الناس موجودة، وقل أن ينتصف منها مخالفوه. اهـ.

(الشافعية)

الفقهاء الشافعية من أكيس الناس وأعلمهم بالدين فأسُّ مذهبهم مبني على اتباع الأحاديث الثابتة المتصلة، وإمامهم من رؤوس أصحاب الحديث[1]، ومناقبه جمّة.

فإن حصلت يا هذا مذهبه لتدين الله به وتدفع عن نفسك الجهل فأنت بخير، وإن كانت همتك كهمة إخوانك من الفقهاء البطالين الذين قصدهم المناصب والمدارس والدنيا والرفاهية والثياب الفاخرة، فما ذا بركة العلم ولا هذه نية خالصة بل ذا بيع للعلم بحسن عبارة، وتعجل للأجر، وتحمل للوزر، وغفلة عن الله تعالى.

فلو كنت ذا صنعة لكنت بخير تأكل من كسب يمينك وعرق جبينك، وتزدري نفسك ولا تتكبر بالعلم.

أو كنت ذا تجارة لكنت تشبه علماء السلف الذين ما أبصروا المدارس ولا سمعوا بالجهات، وهربوا لما للقضاء طلبوا، وتعبدوا بعلمهم، وبذلوه للناس، ورضوا بثوب خام وكِسْرة، كما كان من قريب الإمام أبو إسحق صاحب "التنبيه"، وكما كان بالأمس الشيخ محيي الدين صاحب كتاب "المنهاج"، وكما ترى اليوم سيدي عبد الله ابن خليل.

وعلى كل تقدير احذر المراء في البحث وإن كنت محقاً، ولا تنازع في مسألة لا تعتقدها، واحذر الكبر والعجب بعلمك، فيا سعادتك إن نجوت منه كفافاً لا عليك ولا لك.

---

(1) وهذا يرد على ما يرويه ابن الفراء بطريق ابن أبي حاتم عن أحمد: كان الشافعي فقيهاً ولم تكن له معرفة في الحديث. اهـ. وعلى ما يقوله القاضي عياض في المدارك: تسلم له الإمامة في الفقه وحسن الاعتبار، وليس له إمامة في الحديث ولا معرفة به. اهـ. والمؤلف شافعي الفروع حنبلي المعتقد (على مصطلحهم).

فوالله ما رمقت عيني أوسع علماً ولا أقوى ذكاءً من رجل يقال له ابن تيميـــة مع الزهد في المأكل والملبس والنساء، ومع القيام في الحق والجهاد بكل ممكن، وقد تعبت في وزنه، وفتشته حتى مللت في سنين متطاولة، فما وجدت أخوه بين أهـــل مصر والشام، وما مقتته نفوسهم وازدروا به وكذبوه وكفروه إلا لكبـــر ولعجـــبٍ، وفرط الغرام في رياسة المشيخة والازدراء بالكبار[1].

فانظر كيف وبال الدعاوى ومحبة الظهور- نسأل الله المسامحة- فقد قام عليه أناس ليسوا بأورع منه ولا أعلم منه ولا أزهد منه، بل يتجـــاوزون عـــن ذنـــوب أصحابهم وآثام أصدقائهم وما سلطهم الله عليه بتقواهم وجلالتهم بل بذنوبـــه، ومـــا دفع الله عنه وعن أتباعه أكثر، وما جرى عليهم إلا بعض ما يستحقون فلا تكن في ريب من ذلك.

---

(1) ومن جملة ما يقوله الذهبي في حقه ما نقله ابن حجر في الدرر الكامنة:... ومن خالطـــه وعرفه قد ينسبني إلى التقصير فيه، ومن نابذه وخالفه قد ينسبني إلى التغالي فيه، وقد أوذيت من الفريقين من أصحابه وأضداده. وأنا لا أعتقد فيه عصمة بل أنا مخالف له في مسائل أصلية وفرعية. اهـــ. ومما يجب التنبه إليه أن عادة الذهبي في تراجم الناس أن يـــوزع آراءه فـــي الرجل على كتبه فلا يغني كتاب له عن كتاب آخر له في التراجم، وهذا من معايب كتبه، ولعـــل سبب ذلك أنه من المبكرين في تأليف التراجم، فيترجم من يترجم لهم قبل أن يـــدرس حيـــاتهم على الوجه ثم يتدارك ما فاته في بقية كتبه، وهذه متعبة للفاحص.

(الحنابلة)

وأما الحنابلة فعندهم علوم نافعة وفيهم دين في الجملة، ولهم قلة حظ في الدنيا، والناس يتكلمون في عقيدتهم ويرمونهم بالتجسيم، وبأنه يلزمهم، وهم بريئون من ذلك إلا النادر[1]، والله يغفر لهم.

(1) أما التصريح بالجسمية فهو كما قال المصنف نادر بينهم، وأما معناها فغالب فيهم، ومن لوازم أقوالهم البينة حاشا التيميين وابن عقيل وابن الجوزي، ومن سار سيرهم من الموفقين وقليل ما هم بينهم. وأمر المصنف في المعتقد ظاهر مكشوف في كتاب العلو وغيره.

(علم النحو)

النحويون لا بأس بهم، وعلمهم حسن يحتاج إليه، لكن النحوي إذا أمعن في العربية وعري من علم الكتاب والسنة، وبقي فارغاً بطالاً لعاباً، ولا يسأله الله تعالى والحالة هذه عن علمه في الآخرة، بل هو كصنعة من الصنائع كالطب والحساب والهندسة لا يثاب عليها ولا يعاقب إذا لم يتكبر على الناس، ولا يتحامل عليهم واتقى الله تعالى، وتواضع، وصان نفسه.

(علم اللغة)

اللغويون قد عدموا في زماننا[1]، فتجد الفقيه لا يدري اللغة، والمقرئ لا يدري لغة القرآن، والمحدث لا يعتني بلغة الحديث، فهذا تفريط وجهل، فينبغي الاعتناء بلغة الكتاب والسنة ليفهم الخطاب.

(1) في عصر المصنف ألف مثل "لسان العرب"، و"مختار الصحاح"، و"المصباح" وغيرها من المعاجم الكبيرة والصغيرة المتداولة ليومنا هذا. وكان المجد في طريقه إلى جمع "القاموس المحيط" فلا يحق له الشكوى إلا إذا كان مراده استنهاض همم المحصلين للعناية باللغة كما ينبغي.

(علم التفسير)

قل من يعتني اليوم بالتفسير بل يطالع المدرسون تفسير الفخر الرازي، وفيه إشكالات وتشكيكات لا ينبغي سماعها، فإنها تحير وتمرض وتردي، ولا تشفي غليلا[1]- نسأل الله تعالى العافية.

وأقوال السلف في التفسير مليحة لكنها ثلاثة أقوال فصاعداً، فيضيع الحق بين ذلك[2]، فإن الحق لا يكون في جهتين، وربما احتمل اللفظ معنيين.

(1) للرازي كبير منة على علماء الأمة بما خلد في كتابه من النقول عن تفاسير خسرها العالم الإسلامي، وإن كان في تفسيره بعض ما يؤخذ، يفيض في أبحاث تمس بالمعقول إفاضة ضليع وقلما يوجد مثله بين النظار في الإنصاف مع الأخصام يستفرغ الوسع في تصوير آرائهم على الوجه والاستدلال لها بما قد لا يتيسر لهم، فيطول الكلام عليه حتى إذا أخذ في الرد عليهم قد يعتريه فتور قبل تمام الكلام، فتبقى أشياء لم ينقضها في هذا الموضع ويكون قد نقضها في محل آخر من كتابه، والذهبي ممن لا يتسع صدراً لأبحاث تخرج عن حد الرواية وتدخل في ضمن المعقول والدراية.

(2) يذكر النجم الطوفي في (الإكسير في قواعد التفسير) مسباراً كلياً يختبر به الأقوال المختلفة في التفسير بالرواية، فيتعرف به وجه التخلص منها، وهو من مبتكراته اللطيفة المطردة. والقواعد العامة في التعارض والترجيح مما ينفع في هذا الصدد.

(علم أصول الفقه)

أصول الفقه لا حاجة لك به يا مقلد، ويا من يزعم أن الاجتهاد قد انقطع، وما بقي مجتهد[١]، ولا فائدة في أصول الفقه إلا أن يصير محصله مجتهداً، فإذا عرفه ولم يفك تقليد إمامه لم يصنع شيئاً بل أتعب نفسه، وركب على نفسه الحجة في مسائل[٢]، وإن كان يقرأه لتحصيل الوظائف وليقال، فهذا من الوبال، وهو ضرب من الخبال.

(1) باب الاجتهاد مفتوح لأهله على مصراعيه مدى الدهر، وموصد دون كل غمر غر يعجز عن تحقيق باب من أبواب الفقه على مذهب من المذاهب، ومع ذلك يصبح مجتهداً في جميع العلوم بإلمامٍ يسير منه ببعض رؤوس مسائلها، أفلا يكون للمقلدين الخيرة في ألا يختاروا تقليد مثل هذا المجتهد! فالعالم يجري على علمه، ومن لا يعلم يسأل ثقات أهل العلم على ما نطق به الكتاب والسنة، وعليه استمر عمل الأمة، وسَمِّ أنت ذلك بما شئت.

(2) لو لم يكن من فوائد هذا العلم سوى التبصر في مدارك الأئمة ووجوه الاستنباط لكفاه شرفاً وبهذا الميلق فحسب يمكن اختبار رائج المسائل من زيفها. وبين التقليد البحت الجامد والاجتهاد مراتب، وللذين أوتوا العلم درجات. وليس يلزم لكل من مارس الأصول أن يخرج عن جادة الاتباع فيما انثلج به صدره واستنارت به بصيرته حتى يتحصل بذلك مذاهب وأهواء على عدد أشخاص العلماء، فلا ينتقص هذا العلم ذو لب، ولقد أحسن التقي بن دقيق العيد حيث تراه كثيراً ما يقول في شرح الإلمام: أصول الفقه هو الذي يقضي ولا يقضى عليه.

علم أصول الدين

هذا اسم عظيم وهو منطبق على حفظ الكتاب والسنة، فهما أصول دين الإسلام ليس إلا، وأما العرف في هذا الاسم فهو مختلف باختلاف النحل:

فأصول دين السلف الإيمان بالله تعالى وكتبه ورسله وملائكته وبصفاته وبالقدر وبأن القرآن المنزل كلام الله تعالي غير مخلوق، والترضي عن كل الصحابة إلي غير ذلك من أصول السنة.

وأصول دين الخلف هو ما صنفوا فيه وبنوه علي العقل والمنطق، وكان السلف يحطون على سالكه ويبدعونه[1]، وبينهم اختلاف شديد في مسائل منه تركها من

---

(1) ما كان الخلف موجودا في عهد السلف فكيف يتأتي هذا الحط، وهل لهؤلاء دين ولأولئك دين آخر تالله لتلك إحدى الكبر، فيكون محصل كلامه أن السلف فريقان متنابذان في أصل المعتقد تابع بعض الخلف أحد الفريقين وبعضهم الفريق الآخر. والحق أن عقيدة السنة في الإسلام واحدة سلفاً وخلفاً لا تتغير ولا تتبدل بل الذي يتجدد هو طريق الدفاع عنها بالنظر لخصومها المتجددة. وذم علم الكلام ممن كان في موضع الإمامة من السلف محمول حتماً علي كلام أهل البدع وخوض العامي فيه قال الأستاذ أبو القاسم القشيري وأجاد: لا يجحد علم الكلام إلا أحد رجلين جاهل ركن إلي التقليد وشق عليه سلوك طرق أهل التحصيل، وخلا عن طرق أهل النظر والناس أعداء ما جهلوا، فلما انتهي عن التحقق بهذا العلم نهى الناس ليُضلَّ، كما ضل أو رجل يعتقد مذاهب فاسدة فينطوي على بدع خفية يلبس على الناس عوار مذهبه ويعمي عليهم فضائح عقيدته، ويعلم أن أهل التحصيل من أهل النظر هم الذين يهتكون الستر عن بدعه ويظهرون للناس قبح مقالاته، والقلاب لا يحب من يميز النقود والخلل فيما في يده من النقود الفاسدة كالصراف ذي التمييز والبصيرة، وقد قال تعالي: (هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون). اهـ. وأجرأ الناس وأكثرهم خرقاً لحجاب الهيبة في إكفار المخالف -مع ما ورد في ذلك من الوعيد الشديد- جماعة الحشوية كما يقول ابن دقيق العيد وكما يظهر من كتبهم في الصفات والتوحيد والرد علي الجهمية وذم الكلام والسنة ومما ألفوه في نقد الرجال، ومذهب أهل السنة عدم إكفار المخالف من أهل القبلة.

حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه، فإنه يورث أمراضاً في النفوس، ومن لم يصدقني يجرب، فإن الأصولية بينهم السيف يكفر هذا هذا، ويضلل هذا هذا.

فالأصولي الواقف مع الظواهر والآثار عند خصومه يجعلونه مجسماً وحشوياً ومبتدعاً، والأصولي الذي طرد التأويل عند الآخرين جهمياً ومعتزلياً وضالاً والأصولي الذي أثبت بعض الصفات ونفي بعضها وتأول في أماكن يقولون متناقضاً.

والسلامة والعافية أولى بك، فإن برعت في الأصول وتوابعها من المنطق والحكمة والفلسفة وآراء الأوائل ومحارات العقول، واعتصمت مع ذلك بالكتاب والسنة وأصول السلف ولفقت بين العقل والنقل، فما أظنك في ذلك تبلغ رتبة ابن تيمية، ولا والله تقاربها وقد رأيت ما آل أمره إليه من الحط عليه والهجر والتضليل والتكفير والتكذيب بحق وبباطل، فقد كان قبل أن يدخل في هذه الصناعة منوراً مضيئاً على محياه سيما السلف ثم صار مظلماً مكسوفاً عليه قتمة عند خلائق من الناس، ودجالاً أفاكاً كافراً عند أعدائه، ومبتدعاً فاضلاً محققاً بارعاً عند طوائف من عقلاء الفضلاء، وحامل راية الإسلام وحامي حوزة الدين ومحيي السنة عند عموم عوام أصحابة.

هذا ما أقول لك[1].

---

(1) وبعد أن نقل الشيخ صديق خان القنوجي هذا وما سبق ببعض مخالفة لما هنا قال: فأنت تري كلامه في الشيخ فزنه بعقلك فإنه ظاهر التناقض والله أعلم بالسرائر. اهـ. كما في مجموع (الرد الوافر) في ص١٢٦ من الطبعة الفرجية تعليقاً على قول الصفي البخاري في (القول الجلي): يعارضه ما ذكر هو نفسه في (زغل العلم). اهـ. وإن وقع في تلك الطبعة هكذا (رجل العلم) ووضع رقم التعليق في غير محله. والواقع أن عدة من العلماء كانوا أسرعوا في إطراء ابن تيمية وتحزبوا له في بادئ الأمر ثم صعب عليهم التراجع عن قولهم فيه إلي توغل في مفرداته المعروفة، فتخلوا عنه واحداً بعد واحد حتى الجلال القزويني والقونوي والجريري وغيرهم، وعيل اصطبارهم معه، بل انحرف الذهبي عنه أيضاً بعض انحراف بعد أن سعى مدة

(علم المنطق)

المنطق نفعه قليل وضرره وبيل وما هو من علوم الإسلام، أما الحق منه فكامن في النفوس الزكية بعبارات غريبة، والباطل فاهرب منه، فإنك تنقطع مع خصمك وأنت تعرف أنك المحق، وتقطع خصمك وأنت تعرف أنك على الخطأ، فهي عبارات واهية ومقدمات دكاكة- نسأل الله تعالى السلامة.

وإن قرأته للفرجة لا للحجة وللدنيا لا للآخرة فقد عذبت الحيوان، وضيعت الزمان، وأما الثواب فإيأس منه، ولا تأمن من العقاب إلا بمتاب[1].

=

لتخفيف وطأة أضداده نحوه وانتشاله مما تورط فيه سعياً بالغاً كما لا يخفى على من درس حياته عفا الله عما سلف.

(1) أنصف المصنف هنا بعض إنصاف بالقياس إلي آراء طائفته في هذا العلم ولم يقل كما قال السيوطي في شرح عقود الجمان له: نحن معاشر أهل السنة لا ننجس تصانيفنا بقذر المنطق. اهـ. ومن الغريب أن الموفق المقدسي لما ألف (روضة الناظر) في أصول الفقه واختصر فيها مستصفى الغزالي برمته وجري علي ترتيبه وعباراته كما يظهر من فحص الكتابين لخص مقدمته المنطقية وجعلها مقدمة لكتابه، وانتشرت نسخ الروضة كذلك، ولما وقف بعض العلثيين من أهل مذهبه على الكتاب احتد غضباً وعاتب الموفق عتاباً مراً على جعله المنطق جزءاً من كتابه، فانصاع إليه وأخذ يترك المقدمة حين يقرأ الكتاب عليه، فلذلك ترى المقدمة في نسخة دون نسخة. قال النجم الطوفي في شرح مختصر الروضة له: وإني أهملت المقدمة في مختصري لأني لا أحقق ذلك العلم ولا الشيخ الموفق أيضاً كان يحققه، فلو اختصرتها لظهر التكلف عليها من الجهتين، فلا يتحقق الانتفاع بها للطالب ويقطع عليه الوقت، فمن أراد ذلك العلم فعليه بأخذه من مظانه من شيوخه وكتبه. اهـ. وهكذا يكون الرجل الصريح. ومن لا يلم بهذا العلم قد يتناقض ولا يشعر ويتخبط ولا يدري ماذا جرى، ويبقى ضحكة لذوي العقول في المباحث النظرية، فهو علم يعصم عن الخطأ في الأفكار، ولا يوثق بعلم من لا يعلمه عند أهل التحقيق.

(علم الحكمة)

الفلسفة الإلهية ما ينظر فيها من يرجى فلاحه، ولا يركن إلى اعتقادها من يلوح نجاحه، فإن هذا العلم في شق وما جاءت به الرسل في شق، ولكن ضلال من لم يدر ما جاءت به الرسل كما ينبغي بالحكمة أشر ممن يدري.

واغوثاه بالله. إذا كان الذين قد انتدبوا للرد على الفلاسفة قد حاروا ولحقتهم كسفة، فما الظن بالمردود عليهم؟!

وما دواء هذه العلوم وعلمائها والقائمين بها علماً وعقلاً إلا الحريق والإعدام من الوجود إذ الدين مازال كاملاً حتى عربت هذه الكتب، ونظر فيها المسلمون، فلو اعتدمت لكان فتحاً مبيناً[1].

والحكمة الرياضية فيها حق من طبائع هندسية وحساب ونحو ذلك، وفيها أباطيل من التنجيم وما أشبهه فباطلها يؤذي المرء في دينه ويضلله، وحقها: صنعة وإتقان وتحرير مما لا أجر فيه ولا وزر.

والحكمة الطبيعية لا بأس بها لكنها ليست من علوم الدين، ولا مما يتقرب به إلى الله تعالى، ولا من زاد المعاد، بل هي صنعة بلا ثواب ولا عقاب إذا كان صاحبها سليم الاعتقاد عدلاً خيراً كما رأينا جماعة منهم، وقد يثاب الرجل على تعليمها بالنية إن شاء الله تعالى.

---

(1) هل ورد في ذلك كتاب ناطق أو نص من الرسول صلى الله عليه وسلم قاطع حتى تحكم بهذا الحكم الشديد ! بالله خل علماء المسلمين يقومون بواجبهم يتوقون الضار ويأخذون النافع وضالتهم المنشودة حيث وجدوا، وإنما تسرب الفساد إلى فساد شئون المسلمين بسبب الجهل والكسل لا بالعلم والعمل ، نعم من كان سيئ السريرة يقدر أن يعمل من الفساد بعلمه ما لا يقدر عليه الجاهل؛ لكن الذنب في ذلك ليس إلى العلم بل على التهذيب والتدريب.

(علم الفرائض)

والفرضيون داخلون في الفقهاء إذ هو كتاب من كتب الفقه، وهو علم مليح والإمعان فيه يفوت الوقت، والتوسط في ذلك جيد، فكم من مسألة فيه ما وقعت ولا تقع أبدا.

(علم الإنشاء)

الإنشاء فن أبناء الدنيا ليس من علم الآخرة في شيء، والكامل فيه يحتاج إلى مشاركة قوية في العلوم الإسلامية، ويريد عقلاً تاماً ورزانة، وسرعة فهم وقوة تخيل وتبصر باللغة والنحو، وخبرة بالمعاني والبيان والسير وأيام الناس، وفنون الأدب وحسن كتابة.

ولكن ليكن رأس مال المنشئ تقوى الله ومراقبته، فربما وضع لفظة تعجبه يهوي بها إلى النار وهو لا يدري، وربما أبدع في سطر ترتب عليه خراب مصر وربما أعان بقلمه على سفك دم بتلك البلاغة، فانظر أين أنت يا بليغ. قد ذم نبيك صلى الله عليه وسلم البلاغة فقال: **(إن من البيان لسحرا)**[(1)]، وقال صلى الله عليه وسلم: **(العي من الإيمان)**، فكمل براعة بلاغتك بإرضاء ربك الأعلى، وبنصح رب الأمر، فهنا كمال البلاغة إن كنت من المتقين، وإن تعذر ذلك فدينك ما به عوض فمن اتقى الله تعالى كفاه الناس، ومن أرضى الناس بسخط الله تعالى سلط الله عليه من أرضاه، وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين.

---

(1) يا ترى هل هذا في جانب البيان مدح أم قدح!

(علم الشعر)

والشعر هو من فنون المنشئ وهو كلام، فحسنه حسن وهو قليل وقبيحه قبيح وهو الأغلب، وبيت ماله الكذب والإسراف في المدح والهجو والتشبيه والنعوت والحماسة، وأملحه أكذبه فإن كان الشاعر بليغاً مفوهاً مقداماً على الكذب في لهجته مصراً على الاكتساب بالشعر رقيق الدين، فقد قرأ مقت الشعر في سورة الشعراء. ويندر على الشعراء المجودين أن يتصونوا من الهجاء، وربما أدى الأمر بالشاعر للتجاوز إلى الكفر- نسأل الله العفو- فالشاعر المحسن كحسان، والمقتصد كابن المبارك والظالم كالمتنبي، والسفيه الفاجر كابن الحجاج، والكافر كذوي الاتحاد، فاختر لنفسك أي واد تسلك.

(علم الحساب)

الحساب وشرع الديوان من علوم القبط والفرس ليس من علوم الإسلام[1]، وهو صنعة ومعيشة ينال بها الرجل السعادة والدنيا، وكلما كان أمهر كان أسرق، ومن اتقى الله فيها وكتب لقضاة العدل وباشر للأيتام والصدقات، ومال الأوقاف والمدارس وأدى الأمانة واتقى فيه، فهذا محمود ومأجور بنيته، فقد رأينا جماعة يسيرة على نحو ذلك، نعم ورأينا ذئابا عليهم الثياب، وفاسق الكتبة إليه المنتهى في السرق، وعاقبة أمرهم وبيلة من الضرب والمصادرة والفقر.

(1) كأنه يتناسى ما قيل في قوله تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام: (إني حفيظ عليم) أي حفيظ للألسن عليم بعلم الحساب كما ذكره أبو الحسن الماوردي وغيره.

(علم الشروط)

الشروط[1] علم حسن شرعي، من برع فيه والتزم العدالة والورع عاش حميداً ومات فقيداً، ومن عاش فيه بالمكر والحيل والدعاوي، فلابد له من خزي في الدنيا ومقت في الأخرى، ولا يسود هذا، قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن أتقى.

(1) هو علم تنظيم الصكوك والمحاضر والسجلات والوثائق الشرعية.

(علم الوعظ)

الوعظ فنٌّ بذاته يحتاج إلى مشاركة جيدة في العلم، ويستدعي معرفة حسنة بالتفسير، والإكثار من حكايات الصالحين الفقهاء والفقراء والزهاد، وعدته التقوى والزهادة، فإذا رأيت الواعظ راغباً في الدنيا قليل الدين فاعلم أن وعظه لا يتجاوز الأسماع ، وكم من واعظ مفوه قد أبكى وأثر في الحاضرين في تلك الساعة ثم قاموا كما قعدوا، ومتى كان الواعظ مثل الحسن والشيخ عبد القادر انتفع به الناس.

والحمد لله رب العالمين

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

وبه تم بيان زغل العلم

* * * * * *

النصيحة الذهبية لابن تيمية

للحافظ الذهبي

عن أصل منقول من نسخة البرهان بن جماعة

التي كتبها من نسخة الحافظ الصلاح العلائي

المأخوذة عن خط الذهبي

لما أخذ ابن تيمية يمضي في شذوذه وقام العلماء ضده كان الـذهبي ممـن سعى في تهدئة الطرفين، مرة يعتب أضداده على تشددهم عليه مراعاة لسعة علمه، وأخرى يبعث بهذه الرسالة إليه نفسه ليخفف من غلوائه وليحذره عواقب مـا هـو عليه من الوقيعة في كبار أهل العلم، والشذوذ عنهم.

وفي الاطلاع عليها فوائد للفاحصين وذكرى للذاكرين، وعنى السخاوي هذه الرسالة حيث قال في "الإعلان بالتوبيخ" في أثناء دفاعه عن الذهبي رداً على مـن ينسبه لفرط التعصب: "ورأيت له رسالة كتبها لابن تيمية هي في دفع نسبته لمزيد تعصبه مفيدة".

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله. علي ذلتي يارب ارحمني وأقلني عثرتي. واحفظ علي إيماني واحزناه علي قلة حزني.

وا أسفاه علي السنة وذهاب أهلها.

واشوقاه إلي إخوان مؤمنين يعاونونني علي البكاء.

واحزناه علي فقد أناس كانوا مصابيح العلم وأهل التقوي وكنوز الخيرات.

آه على وجود درهم حلال وأخ مؤنس.

طوبي لمن شغله عيبه عن عيوب الناس. وتبًّا لمن شغله عيوب الناس عن عيبه.

إلي كم ترى القذاة في عين أخيك وتنسي الجذع في عينك!

إلي كم تمدح نفسك وشقاشقك وعباراتك وتذم العلماء وتتبع عورات الناس، مع علمك بنهي الرسول صلي الله عليه وسلم: **"لا تذكروا موتاكم إلا بخير فإنهم قد أفضوا إلي ما قدموا"**، بلى، أعرف أنك تقول لي لتنتصر نفسك.

إنما الوقيعة في هؤلاء الذين ما شموا رائحة الإسلام، ولا عرفوا ما جاء به محمد صلي الله علية وسلم وهو جهاد.

بلي، والله عرفوا خيرا كثيرا مما إذا عمل به العبد فقد فاز، وجهلوا شيئا كثيرا مما لا يعنيهم ومن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه.

يا رجل بالله عليك كف عنا فإنك محجاج عليم اللسان لا تقر ولا تنام.

إياكم والأغْلُوطات في الدين.

كره نبيك صلى الله عليه وسلم المسائل وعابها، ونهى عن كثرة السؤال وقال: "**إن أخوف ما أخاف على أمتي كل منافق عليم اللسان**".

وكثرة الكلام بغير دليل تقسي القلب إذا كان في الحلال والحرام، فكيف إذا كان في عبارات اليونسية والفلاسفة، وتلك الكفريات التي تعمي القلوب؟

والله قد صرنا ضحكة في الوجود، فإلى كم تنبش دقائق الكفريات الفلسفية لنرد عليها بعقولنا؟

يا رجل قد بلعت سموم الفلاسفة ومصنفاتهم مرات، وبكثرة استعمال السموم يدمن عليها الجسم، وتكمن والله في البدن.

واشوقاه إلى مجلس فيه تلاوة بتدبر وخشية بتذكر وصمت بتفكير.

واهاً لمجلس يذكر فيه الأبرار، فعند ذكر الصالحين تنزل الرحمة، لا عند ذكر الصالحين يذكرون بالازدراء واللعنة، كان سيف الحجاج ولسان ابن حزم شقيقين فواخيتهما.

بالله خلونا من ذكر بدعة الخميس، وأكل الحبوب، وجدّوا في ذكر بدع كنا نعدها رأسا من الضلال، قد صارت هي محض السنة وأساس التوحيد، ومن لم يعرفها فهو كافر أو حمار، ومن لم يكفر فهو أكفر من فرعون، وتعدُّ النصارى مثلنا .

والله في القلوب شكوك، إن سلم لك إيمانك بالشهادتين فأنت سعيد.

يا خيبة من اتبعك فإنه معرض للزندقة والانحلال، لا سيما إذا كان قليل العلم والدين باطولياً شهوانياً، لكنه ينفعك ويجاهد عنك بيده ولسانه، وفي الباطن عدو لك بحاله وقلبه، فهل معظم أتباعك إلا قعيد مربوط خفيف العقل؟ أو عامي كذاب بليد الذهن؟ أو غريب واجم قوي المكر؟ أو ناشف صالح عديم الفهم؟ فإن لم تصدقني ففتشهم وزنهم بالعدل.

يا مسلم أقدم حمار شهوتك لمدح نفسك، إليَّ كم تصادقها وتعادي الأخيار؟!

إلي كم تصدقها وتزدري بالأبرار؟

إلى كم تعظمها وتصغر العباد؟

إلي متي تخاللها وتمقت الزهاد؟

إلي متي تمدح كلامك بكيفية لا تمدح بها والله أحاديث الصحيحين؟

يا ليت أحاديث الصحيحين تسلم منك، بل في كل وقت تغير عليها بالتضعيف والإهدار أو بالتأويل والإنكار.

أَمَا آن لك أن ترعوي ؟!

أَمَا حان لك أن تتوب وتنيب؟!

أما أنت في عشر السبعين وقد قرب الرحيل؟ بلي والله.

ما أذكر أنك تذكر الموت، بل تزدري بمن يذكر الموت، فما ظنك تقبل علي قولي ولا تصغي إلي وعظي، بل لك همة كبيرة في نقض هذه الورقة بمجلدات، وتقطع لي أذناب الكلام ولا تزال تنتصر حتى أقول لك: والبتَّة سكتٌ.

فإذا كان هذا حالك عندي، وأنا الشفوق المحب الواد، فكيف يكون حالك عند أعدائك، وأعداؤك والله فيهم صلحاء وعقلاء وفضلاء؟

كما أن أولياءك فيهم فجرة وكذبة وجهلة وبطلة وعور وبقر.

قد رضيت منك بأن تسبني علانية وتنتفع بمقالتي سرا، (رحم الله امرءاً أهدي إليَّ عيوبي)، فإني كثير العيوب غزير الذنوب، الويل لي إن أنا لا أتوب، ووافضيحتي من علام الغيوب، ودوائي عفو الله ومسامحته وتوفيقه وهدايته.

والحمد لله رب العالمين، وصلي الله علي سيدنا محمد خاتم النبيين، وعلي آله وصحبه أجمعين.

الفهـــــرس

الفهرس

من تراث الكوثري

